نظرية الدولة عند القديس أوغسطين
-بين أوهام المدينة الأرضية وشروط النهضة الروحية-

عفيان محمد[1]

قيام الحضارة والدولة على أسس متزنة تضمن العدالة وتؤمن استمرارية النظام السياسي للراعي والرعية، دون تسرب الفوضى هم تقاسم التفكير فيه كل باحث في ميدان الفلسفة السياسية، سواء في صورتها الكلاسيكية أم المعاصرة وعن التفكير في هذا الشأن تبرز الكثير من نظرية، وتمتزج السياسة بالحضارة والتاريخ، خصوصا وأن الدول لم تعرف الواعد البارمنيدي، بل التغير سنة من سنن الحضارة.

فكل دولة إلا وأصابها الهزال السياسي، وتلاشت قوتها بعدما اشتدت شوكتها فكان شأنها من شأن الجسد ينتقل من صبا إلى كبر، وعن التغيرات والتحولات السياسية، وتبرير مشروعية السلطة، وتوضيح حقيقة المواطنة تبرز نظريات مختلفة منها التعاقب الدوري، نظرية القوة، العناية الإلهية، فصل الأخلاق عن السياسة، وفلسفة القديس أوغسطين في السياسة والحضارة واحدة من هذه الفلسفات الباحثة عن سر بناء المدينة الحقيقية، وتجاوز أوهام المدينة الزمنية التي جوهرها الفساد ومطلبها تقديس الواضحات من الفاضحات الأخلاقية.

إذ تحول أوغسطين من اللاهوت إلى السياسة قصد البحث عن حقيقة السلطة الروحية التي كانت تنقص الحضارة الرومانية التي عرفت التدهور الناجم عن تقديس الأوثان التي لا تحمي حتى نفسها فكيف لها من حماية أسوار المدينة!

فاستمد أوغسطين نواميس المدينة من البعد الروحي والإيطيقي، والتاريخي وهذه الأركان أساس الحضارة التي مقرها الإمبراطورية الرومانية، خصوصا بعد إعلان المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، تضعف روما ويتطير أهلها من الديانة الجديدة وتصبح حضارة العالمية في عداد الأحداث التاريخية التي لا يمكن تكرارها.

1 أستاذ مساعد (أ) قسم العلوم الاجتماعية، شعبة الفلسفة جامعة د.الطاهر مولاي، سعيدة، الجزائر.

هذا ما لم يفعله القديس أوغسطين الذي تفنن في الدفاع عن المسيحية، وأبدع مؤلفه "مدينة الله" في فلسفة الحضارة والسياسة والتاريخ، كل هذا ليس بغية تكرار حضارة روما لأن أهلها انحازوا عن محبة الله، وقدسوا الشيطان، بل لبناء المدينة السماوية التي يتحد فيها التدبير الإنسي بكمال القيم الدينية، وفق مخطط العناية الإلهية، فما هو سر تحول القديس أوغسطين في الجانب اللاهوتي إلى فلسفة السياسة والحضارة؟ وعلى أي أساس نشيد الحضارة حتى لا يتسرب إليها الهزال؟ وكيف نوجه الرعية إلى ترك ما لله لله وما لقيصر لقيصر؟

كل هذه النقاط نوضحها من خلال حديثنا عن البنية الإيطيقية والسياسية والدينية للدولة عند القديس أوغسطين مع التوقف عند حقيقة المواطنة وأوهام المدينة الأرضية.

حقيقية الإمبراطورية الرومانية:

«أحضر الرومان العالم المسكون إلى سلطتهم»[1].

تميز الرومان بحضارة القوة والقانون داخل إمبراطورية اختلف الروايات حول تأسيسها، وعرفت روما الإمبراطورية تحولات سياسية وثقافية متنوعة، وأهم هذه التحولات، التحول الديني من الوثنية إلى المسيحية «وبعد إعلان المسيحية الدين الرسمي لإمبراطورية روما يلتحم المادي بالروحي وتصبح الدولة الأبدية هي الإمبراطورية الرومانية»[2]. فهي أنموذج كمال التدبير حسب القديس أوغسطين، وهي المدينة السماوية التي تحاكي مملكة المسيح، كون روح النواميس مستمدة من تقديس الكنيسة، وإعطاء الله حق عبادته.

لكن توسع روما، إلى جانب إجماع القبائل المجاورة الاستعمارية عجل بتدهور هذه الحضارة في الوقت الذي شاعت فيه المسيحية، الأمر الذي جعل الوثني من أهلها يتطيرون من الديانة الجديدة، ويعتبرونها لعنة آلهتهم.

وبالتالي يشتد الصراع المسيحي الوثني بعدما اعتنق منذ إعلان قسطنطين زريق المسيحية ديانة رسمية، لكن حوالي «410 م تعرضت روما لهجومات من قبائل الإريك،

---

1 - الشني محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982ص 128. دط

2 - فراح عبد العزيز، أنا القديس أوغسطين من أبناء تافست، تر: حسين لبرش (دط، الجزائر، منشورات أبيل، 2007)، ص 277.

أحرقوا حضارة السنين»[1]، أحرقت حضارة القوة في ظرف وجيز، وهذا ما لم يقبله لا المسيحي ولا المواطن الوثني ولا القديس أوغسطين الذي تفنن في الدفاع عن المسيحية، وعن الحضارة وساهم في البحث عن حقيقة المدينة التي يكتمل فيها المادي بالروحي، وهذا بتشخيص الداء في أوهام المواطنة، وتحليل تاريخ الإمبراطورية بتوجيهه إلى مخطط العناية الإلهية فما هي الأوهام التي ساهمت في تدهور الحضارة الرومانية؟

أوهام المواطنة وتدهور حضارة الدولة الرومانية

<u>أولا: أوهام الشرق:</u> من جملة الأوهام التي أعاقت تقدم الحضارة الرومانية تمزقها جراء التوسع وإهمال المحبة الإلهية مقابل تقديس الماديات وتوجيه الرعية إلى الحروب بالقدر الذي يجعل المواطن يعيش الاغتراب «فالعالم الروماني هو عالم ممزق، يسوده الاغتراب هو نموذج المجتمع القانوني المجرد الذي فقد أفراده كل علاقة روحية شخصية بالحياة الاجتماعية العينية، حيث يسمح الوعي شقي ومستلب»[2].

وتجاوز الحروب والتمزق لابد أن يكون بالتوجه الروحي لا بالانهماك في الماديات، لأن الماديات تدنو بصاحبها إلى مرتبة المدنس، لكن أوغسطين لا ينكر الدور القانوني والحضاري لروما، فحتى المدينة السماوية تستفيد من خيرات المدينة الأرضية، لكن التقدم المادي ليس هو الركن الوحيد من تحديد الدولة والمواطنة بل الأمر يتطلب السير وفق مخطط العناية الإلهية، حتى لا نعيش أوهام الجهل والاغتراب فيذكر القديس بولس في رسالته إلى أهل أعسس «إنهم مظلومون في جهلهم مغتربون عن حياة الله، بسبب الذي فيهم وبسبب قساوة قلوبهم»[3].

ثانيا: أوهام الوثنية

دافع أوغسطين عن مسيحيته، وبرم في دحض حجج الوثنيين والمانويين خصوصا بعد اهتدائه إلى المسيحية بدعوة من أستاذه القديس أمبرواز وأمه مونيكا وخصص لهذا الشأن اعترافاته التي حطم فيها جميع خزعبلات الوثنيين، يقول القديس أوغسطين في

---

1 - المرجع نفسه، ص 277.

2 - عباس فيصل، الاغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي(ط1، لبنان، دار المنهل اللبناني، 2008)، ص123.

3 - رسالة بولس إلى أهل أعسس، ص 277.

اعترافاته: «حتى لو أنني توصلت إلى تصور طبيعة روحية لكنت حطمت جميع خزعبلاتهم، ولم يعد لي حق البقاء في بدعتهم وقررت البقاء في الكنيسة الكاثوليكية، كنيسة أبائي، حتى سطع نور الحق الثابت الذي يضيء لي السبيل»[1].

وليست المانوية فقط من البدع التي أفسدت المواطنة ولم تجد حلا لمشكلة السر الأخلاقي أيضا الوثنية داخل روما ساهمت في بطلان الملة، والعقاب الإلهي لسكان روما أمام انهزام آلهتهم، يقول أوغسطين في مدينة الله: «تأملوا الآلهة الذين فاخر بهم الرومان حراسا للمدينة، يا لفداحة الخطأ الذي يستدعي الشفقة، يقاومونا عندما تتحدث بهذا الشكل عن آلهتهم»[2].

ثالثا: في أوهام الالهة التي تحمي البلد

ثالثا: في أوهام الآلهة التي تحمي البلد

كيف نسلم المدينة لآلهة عاجزة حتى في حماية نفسها؟ هو خطأ يستدعي الشفقة حسب القديس أوغسطين كون تاريخ الوثنية له نهاية أما تاريخ العناية الإلهية نهايته هي غائية التاريخ أين تتحقق السعادة الأبدية للأبرار من مواطني المدينة السماوية بينما الشقاء لأهل المدينة الأرضية الزمنية، وينتقد أوغسطين أوهام الوثنيين في تصورهم أن التماثيل تحميهم يقول في مدينة الله: «هل من الفطنة سليم مدينة روما إلى أولئك الآلهة المنهزمين ليؤمنوا لها النهر»[3].

في حقيقة النصر الأبدي يكون بإتباع الله ووصاية الكنيسة لا تبادل التهم حول سقوط روما، فهذا لحظة تاريخية لا يمكن أن تتكرر يعتبر منها أهل المدينة السماوية أهل الخلاص.

رابعا: أوهام محبة الشيطان:

لتوضيح حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين لابد من الوقوف عند التوزيع القضائي عند الفيلسوف الذي كف عن المانوية كعقيدة، لكن أبقى على جوهر القسمة الثنائية بين الأخيار والأشرار، السعادة والشقاء، مدينة الرب، مدينة الشيطان، الخير والشر «إذ

1 - القديس أوغسطين، الاعترافات، تر الخوري أسقف يوحنا الحلو (ط3، بيروت، دار دمشق، 1996)، ص 96.
2 - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول، ص 12.
3 - المصدر نفسه، ص 13.

يميز القديس أوغسطين بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية، وبين نوعين من البشر ويمكن أن نعتبر هذا التمييز مازال قائما إلى يومنا هذا»[1].

وكل مدينة لها مميزات أخلاقية واجتماعية وتاريخية، أما المدينة السماوية جوهرها محبة الله حيث يقول: «إننا نسمي مدينة الله تلك التي يشهد لها الكتاب المقدس، بما له من سلطة إلهية، قلدته إياها العناية الإلهية»[2].

أما أوهام محبة الشيطان مستقرها المدينة الأرضية والتاريخ يستعد على عجزها، ولا تشبه المدينة السماوية في المصير الأبدي، هي عالم التحولات من المقدس إلى المدنس، ومن محبة الله إلى محبة الشيطان، وتغيب بداخلها الفضيلة والعفة الحقيقية، وأهل مدينة الشيطان لا يدركون السوء لذلك يسيئون إلى أنفسهم.

ومن خلال ما تقدم من كلام عن أوهام فساد الحضارة وتدهور النظام السياسي التي شخصها القديس أوغسطين قصد تحقيق المعنى الأساسي للمواطنة بشقيها الزمني والروحي لينتقل الفيلسوف إلى عرض أسس نظرية الدولة نجد مؤلفه مدينة الله وحقيقة السلطة الروحية لتقديم مشروع النهضة بالحضارة أو السلطة السياسية ففيها يتمثل جوهر وبنية هذا المشروع على مختلف المستويات الدينية والأخلاقية والاجتماعية، والتاريخية.

شروط النهضة السياسية عند القديس أوغسطين:

<u>أولا: البعد الأخلاقي:</u> يكون الشعب ممقوتا أو فاضلا حسب طبيعة حبه، وهذه الطبيعة مرتبطة بالقيم الأخلاقية التي تساهم في بناء الفرد وتماسك السلطة وتضمن الخلاص للأفراد، لأنه في النهاية كل فرد مسؤول عن تسيير إرادته فيذكر أوغسطين قائلا: «إن الله لا يكفي بإصدار حكم عام على الشياطين والناس، بل يقاضي كل واحد كل واحد على أعماله الشخصية»[3]، وكمال الأعمال يجعل الفرد يتكامل مع الآخر داخل المجتمع بالقدر الذي يهبه الراحة النفسية، التي ليست من نصيب الأفراد، وهذا ما يوضحه

1- Jean. Claud Eslin. Dieu et le pouvoir théologie et politique en eccident (Paris, Seuil, p83).

2 - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الحادي عشر، ص 15.

3 - المصدر نفسه، ص 64.

أوغسطين في الاعترافات قائلا: «حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك أيها الرب أن يفكر بان كل شرير يصيرا سعيدا، إذ هناك غبطة لا توهب للأشرار، أنك أنت تلك الغبطة»[1]، فمن شروط نهضة المجتمع إرساء قيم أخلاقية كاملة مصدرها حرية الإرادة وتجاوز الشر الأخلاقي الذي هو نقص في الموجود الإنساني وليس من طبيعة الله، وهنا يختلف أوغسطين عن الوثنيين الذين يجعلون إله الخير في صراع مع إله الشر، بل الصراع هو في قلب الأفراد حسب طبيعة المحبة بين الله والشيطان «فالله مصدر كل شيء ومصدر كل خير، والإرادة سيدة نفسها، وخلقها أيضا قادرة على أن ترتبط بالخير الأسمى ولا تحيد عنه»[2].

إذا المدينة السماوية مصدر خير لأنها برعاية الرب أما المدينة الأرضية فهي مدينة الشهوات وموطن الرذيلة، لذلك لابد من تأسيس النواميس داخل المدينة على بعد إيطيقي خالص «فالأخلاق مرتبطة بالقوانين التي تفرضها الدولة لمصلحة المواطنين قصد تنظيم العلاقات بين الناس»[3]، وهذا لا يتعارض مع مخطط العناية الإلهية فالطيبة الخيرة في النفس تساير البعد الديني وتوافقه.

ثانيا: البعد اللاهوتي الروحي

جوهر السياسة الأوغسطينية، إرساء الطابع المقدس على السلطة السياسية للدولة برعاية الكنيسة بالقدر الذي يجعل هذه الدولة مدينة إلهية خالدة لا حاجة لأهلها لا لقاضي كون العدالة متحققة، ولا لطبيب أهلها أصحاء، فتأسي السياسة يجعل «الكنيسة ترعى الدولة وأن تصبح الأرض كلها ولا شيء، غير مدينة الله عند أوغسطين»[4].

ويتحقق هذا بمحاكاة تنظيم الملائكة الأبرار ليسموا أهل روما إلى مرتبة المقدس ويتجاوز فساد الملة عند الملائكة الأشرار ويذكر أوغسطين قائلا: «إن سبب سعادة الملائكة

---

1 - القديس أوغسطين، الاعترافات، ص 219.

2 - علي زيغور، اوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية (ط1، بيروت، دار اقرأ، 1983)، ص 176.

3 - منصور علي رجب، تأملات في فلسفة الأخلاق (ط1، القاهرة، مطبعة مصر، 1953)، ص 19.

4 - رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوروبي في العصر الوسيط (ط1، القاهرة، دار قباء، 2002)، ص 32.

الصالحين هو اتحادهم بالكائن الأسمى، وسبب شقاء الملائكة الأشرار هو انكفاؤهم عمن هو كائن بذاته نحو ذواتهم التي لا كيان لها»[1].

فصورة كل مدينة لها بعد روحي مستمد من محاكاة الملائكة، وهذا يجعل إنهماك أهل روما في تقديس الأوثان والماديات والشهوات حتمية سقوط هذه الحضارة، لذلك الربط بين السلطة الزمنية والروحية، أساس خلود الحضارة لتحقيق السعادة الأبدية.

هذه السعادة مرهونة بالخلاص الذي لا يتحقق إلا بعد انتصار الملائكة الأحياء على الأشرار ويقابله انتصار المدينة السماوية على المدينة الأرضية، لتجاوز الخطيئة «فالخطيئة نابعة من حرية الاختيار، وكل مدينة تحاكي عشيرة معينة من الملائكة وتلاقي في النهاية نفس مصيرها»[2].

ثالثا: البعد الاجتماعي

شدد القديس أوغسطين على القيم الروحية في كتابه روح الجماعة، وهذه القيم توازي مفهوم العصبية عند ابن خلدون، أو الضمير الجمعي مع دوركايم وليفي برول، لكن روح تأسيس المجتمع الذي يمثل بنية المدينة، مبني على أساس المحبة والتعفف والكمال الأخلاقي، وتجاوز كل ما يفيد المواطنة داخل المدينة السماوية «وأساس تجاوز الفساد والوثنية هو التأسيس للقيم الروحية المسيحية»[3].

فالتكامل الاجتماعي مرده إلى محاكاة عشيرة الملائكة الأخيار برعاية الرب، على أساس تثمين العلاقة بين الإنسان والرب، وهذا ما ينعكس على العيش مع ومن أجل الآخرين في مجتمع عادل متكامل دونما نزاع وحروب «لأن جوهر العدالة حسب القديس أوغسطين يتجلى من خلال العلاقة بين الإنسان والرب، وهذا ما ينبثق عنه علاقة سليمة بين الإنسان والإنسان»[4].

---

1 - القديس أوغسطين، مدينة الله، ص 66.

2 - إنجيل متى، الإصحاح، ص 49.

3 - مصطفى النشار، تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون (ط1، القاهرة، الدار المصرية، 2005)، ص 127.

4 - المرجع نفسه، ص 129.

وهذا المطلب الاجتماعي ساهم في جعل النفس البشرية مطية لطلب العليات وهجر الدنيات، وعندما نؤسس للمجتمع انطلاقا من العدالة والأخلاق والتسامح، والمحبة بشيء أهل المدينة على رابطة متينة هي أساس وحدة المجتمع ومحبة الله، فالمجتمع الأوغسطيني لا يرتبط بالفرعيات، بل يرتبط بالإيمان ولا يمجد الكماليات، كون مجتمع المؤمنين لا يحمي المدينة بالأسوار، والحصون والأبراج، بل يؤمن حماية المدينة بتحصين القلوب بالخلاص الأخروي والسعادة الأبدية.

وعليه مطلب المجتمع عند أوغسطين روحي وليس ماديا، وهذا المبدأ له أصوله في الفلسفة الاستشرافية الأفلوطيني، التي جعلت المادة سببا مباشرا في الشرور وهي في أدنى وذيل المراتب «فلسفة أفلوطين، والأفلاطونيين المحدثين قد اقتربت بالأوغسطينية من أعقاب الكنيسة المسيحية»[1]، وساهمت هذه الفلسفة في إيجاد حلول كثيرة لمسائل أفلاطون العقلية والدينية.

وعلى أساس ثنائية البدن والنفس أيضا المجتمع يتأسس على ثنائية الخير والشر، لكن الغلبة لمجتمع الخير الذي ينطبق على التعاليم الدينية ويؤسس للمدينة الخالدة المقدسة، التي تسير وفق التاريخ المسيحي الذي يبلغ غائيته بغلبة الخير والخلاص للمؤمنين المسيحيين واستئصال الشرور، فما على الرعية سوى إتباع مخطط العناية الإلهية «فالتاريخ مسرحية ألفها الرب ويمثلها البشر»[2]، وخير تمثيل للبشر يكون بتأسيس المجتمع على العدالة، وخدمة ومحبة الجلال الأسمى الذي يبسط ملكه إلى بعيد، ويصبح الرعية سعداء الناس في مملكة المسيح الخالدة.

ومن خلال شروط النهضة السياسية عند القديس أوغسطين من خلال إعادة تجسدي البنية الاجتماعية على أساس المحبة الإلهية، وسن النواميس السياسية وفق تعاليم الكنيسة، وتربية النفس على القيم الأخلاقية، يسير تاريخ المدينة في مساره الحقيقي ليبلغ غائيته وكماله، شجرة المدينة السماوية على الأرضية، وفيما يلي نوضح طبيعة هذا

1 - إبراهيم زكرياء، اعترافات القديس أوغسطين (ط1، مصر، مطابع الهيئة المصرية، 1994)، ص 11.

2 - أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ (دط، بيروت، دار النهضة العربية، 1994)، ص 166.

الخلاص الذي تحدث عند القديس أوغسطين، مع تحليل أهم تجلياته في الفكر السياسي الأوروبي طوال القرون الوسطى.

أولا: خلاص ونصرة المدينة السماوية

بدأ أوغسطين مدافعا عن المسيحية، الأمر الذي تطلب من الفيلسوف تبرير أسباب انحطاط الحضارة الرومانية، فشخص الداء في الابتعاد عن الفضيلة، وتقديس الأوثان والشيطان، وماديات خاضعة للفساد والفناء، أما الدواء عند أوغسطين فهو إتباع الفضيلة الأخلاقية ومحبة الله.

لذلك تجاوز المشهد الروماني يكون بنظرة المدينة السماوية على الأرضية بالخلاص الذي يؤمنه المسيح الذي يعمل بمشيئة الله «فحكم المسيح عادل كونه يعمل بمشيئة من أرسله»[1].

ومن أرسل المسيح ينصر الخير على الشر ويتحقق خلاص أهل المدينة بالسماوية، الذين صبروا على طغيان أهل المدينة الأجنبية، وهذا ما يحدث مع غائية التاريخ المسيحي أين تتحقق العدالة «فالعدالة اقترنت بالمسيحية، والدولة غير قادرة على إعطاء كل ذي حق حقه، إذ لم تعطي الله حقه في العبادة»[2].

وحق الله في العبادة يتحقق في غاية التاريخ وخلاص أهل المدينة السماوية، وإنهاء النزاعات والحروب، يقول أوغسطين: «إننا نرغب في إنهاء هذه بالحرب، وفي أن يرفعنا لهيب الحب الإلهي إلى ذلك النظام الثابت اللامتغير من السلام والاستمرار»[3].

والاستمرار يتحقق بالعدل والسلام، والمحبة والتعفف، لتعيش كمال التنظيم السياسي وقوة الإيمان الروحي وهذا جوهر لاهوت التاريخ السياسي عند القديس أوغسطين الذي يبدأ الحديث عنه منذ آدم حتى نهاية الخلق.

---

1 - الخنساء حمزة شلبي، تاريخ الفكر السياسي في العصور القديمة والوسطى(ط2، 1988)، ص 143.

2 - المرجع نفسه، ص 148.

3 - القديس أوغسطين، مدينة الله، الجزء 03، ص 290.

وفي نهاية الخلق ينزل المخلص لينشر العدالة والإخاء، وينصر المستضعفين من أهل المدينة الأرضية الذين طالما كابدوا من أجل محبة الله، وصمدوا أمام عدوان أهل مدينة الشيطان، فنصيبهم السعادة الأبدية وسعادة الأبرار ويلاقون نفس مصير الملائكة الأخيار، كونهم آمنوا ليتعلقوا وأحبوا الله ليتعففوا من الشرور والرذائل التي تحط من قداسة الإنسان إلى أدنى المراتب.

ثانيا: تجليات الخلاص من خلال الأوغسطينية السياسية:

مختلف آراء القديس أوغسطين التي توزعت بين اللاهوت، والتاريخ وفلسفة التاريخ والسياسة ساهم من خلالها الفيلسوف في تبرير أسباب تدهور الحضارة، والحديث عن شروط النهضة السياسية التي لا تتحقق إلا من خلال البعد الروحي للسلطة السياسية.

وأفكار أوغسطين تحولت إلى نظرية في السياسة الأوربية في العصر الوسيط تعرف الأوغسطينية السياسية التي تتيح للكنيسة التعايش مع السلطة ريثما يحل المسيح وما على الرعية إلا تقديم الولاء المطلق لرجل الكنيسة والملك على حد سواء.

والأوغسطينية السياسية «ظهرت بعد القديس أوغسطين قامت على أساس اعتقاد الشرائع الربانية على المدن البشرية، حتى تسود مدينة الله على المدينة الأرضية»[1]. وسادت هذه النظرة طوال القرون الوسطى لتتحول إلى طغيان مفتن يخضع له كل من أراد الانتماء إلى المدينة الخالدة التي تؤمن له السعادة الأبدية.

وشدد القديس بولس على ضرورة الخضوع للسلطة الروحية يقول: «يجب على كل إنسان أن يخضع لأصحاب السلطة، فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطة القائمة هو الذي أقامها»[2].

وأهل مدينة روما حققوا المطلوب بإعلان المسيحية ديانة رسمية، لكن حادوا عن عبادة الإله الحق، مقابل تقديس الأوثان، وتقيدوا بشهوات البدن وأنكروا الحقيقة، وعايشوا

1 - هنري تيسي، أوغسطين إفريقيته وعالميته، الجزائر، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ص 109.
2 - رسالة بولس إلى أهل روما، الإصحاح 13.

الأوهام ولم يدركوا حقيقة التعقل والإيمان «فمذهب القديس أوغسطين يقول: بأنه ليس ثمة معرفة ولا حقيقة حيث لا إيمان»[1].

حيث جعل أوغسطين الإيمان يسبق التعقل، وهذا شرط الاهتداء إلى المعرفة الحقيقية، وليس الزيف الزمني الخاضع لحتمية التدهور، وهذا المبدأ يعكس انفتاح فلسفته على الفلسفات الاشراقية، فالأوغسطينية هي امتداد للأفلاطونية المحدثة «حيث تقوم الأوغسطينية على التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية، وتؤمن بالعقل الذي يفرق بين الحق والباطل ويرى في حب الله أحسن دافع إلى الخير»[2].

وتحقيق هذا الخير قائم على أساس ترك ما لله لله وما لقيصر لقيصر، فيكون للرعية الغد والخلود عند الرب، واليوم هو للقيصر، وفي هذا طغيان متفنن يرفع السلطة السياسية إلى القداسة، بحيث يتقزم الأفراد أمام العناية الإلهية، والتفويض الإلهي للكنيسة، وكل من خالف السلطة الزمنية له الشقاء من السلطة الروحية واللعنة في الحياة الأخروية، وهذا ما حول مقاصد التبرير الأوغسطيني إلى تبرير لمشروعية الحكم باسم الرب طيلة فترة القرون الوسطى الأوربية، واستلب حق الأفراد من خلال سياسة الإخضاع الاقتصادية.

وغابت الحرية والإرادة في ظل الولاء الأعمى للقيصر والقسيس، واغتربت الكلمة واللوغوس التي لم تعد في البدء، بل أصبحت الكلمة مكيفة حسب تعاليم ومنطق الكنيسة، وكل من خالفها تترصده محاكم التفتيش، ومصيره من مصير كوبرنيكوس وغاليلي.

لكن قد يدوم الحكم بالكفر المظهر والمستتر، ولا يدوم بالظلم المعلن لأنه مع مرور الزمن يولد العداء وثورة الرعية، فطغيان السلطة الروحية مهد لثورات لاحقة لا تريد لا ملكا ولا ربا أهمها الثورة الفرنسية، التي نادى الشعب فيها بقتل أول ملك بأمعاء آخر قسيس.

---

1 - مذكور إبراهيم، المعجم الفلسفي (دط، مصر، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، 1983)، ص 27.

2 - المرجع نفسه، ص 27.

فأصبحت حاجة الأفراد ليس إلى السلطة الروحية، بل إلى سلطة العقل وأنواره، وهدفهم تجاوز الطغيان، والأبوية الكنسية المستبدة، هذه الأبوية التي تحجر عن الأفراد ممتلكاتهم المادية والمعنوية وتجعلهم يعيشون الاغتراب.

وعلى العموم فطرح أوغسطين لنظرية الدولة وظفه روحي لتجاوز الحقد الوثني على المسيحية وانتهى إلى مقاصد انعكست على الفكر الأوربي طوال القرون الوسطى، وترجمت الثنائية الأوغسطينية بشكل جديد وهي ثنائية محور الخير والشر.